المعطى التداولي لنظرية العلامة في السيميائيات الأمريكية
المنطلقات والحدود

أ/ هواري بلقندوز
المركز الجامعي– سعيدة –

توطئـــة

لم تشهد السيميائيات وضعا معرفيا قارا، ولا حدودا إجرائية واضحة المعالم بالقدر الذي عرفته شعب معرفية أخرى متميزة، ومنها تحديدا اللسانيات. والسبب في ذلك يعود إلى هشاشة أسسها المعرفية، وافتقارها إلى قواعد ابستيمولوجية بالغة حدا من الانضباط المنهجي والعلمي، على الرغم من اجتهادها منذ البدايات الأولى في الانتصاب مبحثا علميا ينخرط ضمن شعب المعرفة حرصا على هويتها، وإقصاء ما نازعه الطموح إلى مزاحمتها.ولا أدل على ذلك من أن السيميائيات أضحت تختص بمجالات كثيرة و متعددة، إلى حد التضخم والتضارب لتشعب المقاربات حول تفسير العلامة وتداخل أنحاء تأويلها. مما أدى إلى تدافع مسالك البحث وتشابك مستوياته، إلى حد التشظي المصطلحاتي والتداخل المفاهيمي، أو بالأحرى التباس مجال الدرس، وانفلاته من حدود الانضباط العلمي.

يبدو أن تاريخ السيميائيات قد ارتبط بتاريخ تأويل العلامة، ولعل المحاولات الأولى التي تجشمت عناء البحث والمدارسة في هذا المجال، قديمة قدم التفكير في الظاهرة اللغوية عبر كافة مستوياتها، المعجمية والتركيبية والفلسفية والمنطقية على السواء. ولما كان التأويل مجالا تتقاطع فيه جل المسالك المعرفية، أضحى من الصعوبة بمكان إدراك الدارس لمساحة التأويل وحدوده الإجرائية وصفا وتأريخا.

وإذا كانت نشأة هذا العلم قد شهدت ولادة مزدوجة ومتزامنة في إطارها الجغرافي، أمريكا وأوروبا من وجهة، ونهلت من مرجعيتين مختلفتين، منطقية ولسانية من

وجهة أخرى مع ش.س.بيرس1914، وف.دو سوسير1913، فإن الإرهاصات الأولى لانبثاق هذه المعرفة ترتد إلى عصور غابرة وإلى ثقافات الأمم التليدة، من مثل الهنود، والإغريق، والمسلمين العرب القدامى.

وقد لا يستغرب أن يكون وضع السيميائيات على غير هذا النحو من التذبذب حيثما تبينا مدى اتساع مشروعها وتنوع مسالك البحث في العلامة وإبراز كيفيات اشتغالها، على نحو اقتضى بموجبه استدعاء نموذج سيميائي ثلاثي الأبعاد، الدال والمدلول والمرجع من جهة، والتركيب والدلالة والتداول من جهة ثانية. وقد كان لهذا التصور الأنجلوسكسوني –ممثلا في إسهامات بيرس بمعية ش.موريس– فضل السبق في تشيد نسقية سيميائية مفتوحة تعمل على استعادة المحتوى التداولي للعلامة، والذي طالما غيب في المعطى الاجتماعي التجريدي للمشروع السيميولوجي عند دوسوسير. ومن ثمة سعت السيميائيات الأمريكية إلى مدارسة الجانب الإنجازي للعلامة في السياق انطلاقا من الأطروحة المركزية في فلسفة اللغة العادية وهي الاستعمال. وهي إذ ذاك ما لبثت تقاوم سحر التجريد الذي تبتغيه سيرورة العلامات Sémiosis وتخوم المعنى ونشاط التدليل Signifiance سعيا لبناء قاعدة إبستيمية جديدة لفلسفة المعنى ونظرية العلامة.

1– المشروع السيميائي عند ش.بيرس 1839–1914:

إن التأريخ لنشأة الفكر السيميائي المعاصر بدء من جهود ش.س.بيرس، بوصفه أحد طلائع المنطق السيميائي في أمريكا، تبرز لنا ذلك المنعطف الحاسم في تطوير الدرس السيميائي الغربي انطلاقا من قاعدة إبستيمية منطقية وفلسفية تعول على نظرية المقولات المقتبسة عن كانط وهيجل، وتستلهم دعوات المنهج الكلي ومركزية الجبر والعقلانية الديكارتية والرمزية الرياضية اللايبنتزية. وانطلاقا من هذا الزخم المعرفي تبلورت أطروحات بيرس الجديدة الداعية إلى ضرورة اعتماد منطق شكلي قوامه جبر

العلامات، يسعى إلى تفسير معاني ودلالات التجربة الإنسانية استنادا إلى معلومات أمبريقية وقواعد شكلية ذات طبيعة تأملية، سعيا لتأسيس علم للميتافيزيقا، مع إنقادها من أثقالها الوثوقية، بعيدا عن التصور اللغوي الذي سرعان ما التزم به سوسير في مجال اللسانيات البنوية.

ضمن هذا السياق، يكون المنطق المتعالي في تصور بيرس اسما آخر للسيميائيات بوصفها نظرية شكلية ظاهراتية للعلامات. قوامها جملة القوانين التي تحكم تركيب العلامات، يكون مجموعها لغة معينة في علاقة تدليلية مع الفكر. وعندئذ يكون النسق السيميائي ضابطا لهذا الفكر، شأنه في ذلك شأن المنطق. وما دام الإنسان يفكر من خلال العلامات، فإنه يتعين على الباحث السيميائي رصد هذا التفكير في مستوى فهم وتفسير آليات اشتغال العلامات، والأنساق الدالة، وحركة المعنى. ولهذا أكد بيرس حرصه على " **تعميق الدعوى التي فحواها أن السيميائيات بوصفها مرادفة للمنطق هي ركيزة المنهج العلمي، ولا غرو أن تصبح الرياضيات والكيمياء وعلم الفلك والتشريح المقارن والبصريات والجاذبية والدينامية الحرارية وغيرها من العلوم الأخرى موضوعات للسيميائيات** " 1.

ومن اللافت للنظر أن المشروع السيميائي الذي اقترحه بيرس لا يعدو أن يكون مجرد نظرية في المنهج، وليس بحثا في الغاية بوصفها قيمة في ذاتها. ومن هذا المنظور كان عمل بيرس مطبوعا بملامح الفلسفة العملية Pragmatisme بوصفها قاعدة للتفكير المنطقي في السيميائيات، وليست نظرية فلسفية كما اقترنت في الأذهان باسم ويليم جيمس. إلا أن بعض الدارسين يرى أن بيرس يكون قد خرج عن هذا الإطار الذي رسمه لمشروعه منذ البداية، بحكم الرصيد المعرفي الذي شكل قاعدة نظرية ومنهجية لتصوراته حول العلامة، ولا سيما الفينومينولوجيا.2

1-1- السيميوزيس والإطار الذهني للعلامة:

يرى بيرس أن موضوع السيميائيات هو السيرورة المؤدية إلى إنتاج الدلالة وتداولها المتعالي في السياق، وقد اصطلح عليه ب: السيميوزيس Semiosis، تلك السيرورة التي يشتغل بموجبها شيء ما بوصفه علامة. ويبدو أن هذا الاشتغال الحيوي للعلامة يظهر بحق مدى تفعيل المعنى ومساهمته في نشاط التدليل من جهة ثراء استعمال العلامات انطلاقا من مبدأ مقولة الثلاثية Triadique المتوزعة على العناصر الثلاثة المكونة للعلامة. وهكذا يصير السيميوزيس عبارة عن دلالات متناسلة وغير منتهية يحركها اشتغال هذه العناصر الثلاثة وهي: الممثل Representamen، والموضوع

Objet، والمؤول L'interprètent. فإذا عدنا إلى تعريف بيرس الذي يحدد بموجبه العلامة بوصفها ممثلا على أنه " **شيء ما يمثل شيئا ما، بالنسبة لشخص ما، بمظهر ما، أو إمكانية ما**"3 ، سنكتشف –لا محالة– أن هذه العلامة إنما توجه إلى شخص معين، حيث تخلق في ذهنه علامة مساوية أو أكثر نضجا من الأولى، وهكذا دواليك بالنسبة لباقي العلامات، التي ماانفكت تتناسل وفق مبدأ التعريفات في المنطق التقليدي، من حيث أن العلامة تكتسب تعريفات جديدة أثناء الانتقال من مؤول إلى آخر.

ومن ههنا كانت مسألة مقاربة المعنى المنطقي بشكل نهائي، مسألة عديمة الفحوى، شأنها في ذلك شأن البحث عن المعنى الواحد في النص الأدبي، الذي أضحى ضربا من ضروب المجازفة في مجال النقد الأدبي بشكل خاص. ومن ثمة فإن الانزلاق المستمر من علامة إلى أخرى، يسمح للنص الأدبي أن ينفتح على معان متعددة، وبالتالي إمكانية تعددية التلقي التي تفضي إلى تحقق القارئ في مستويات متعددة من مساحة التأويل. 4

لا مندوحة أن يكون مفهوم العلامة لدى بيرس قد انزاح عن طابعه الحصري الذي طبع به ضمن مبدأ الثنائية في المشروع السوسوري. ليصير محتكما إلى مبدأ الثلاثية سعيا للوقوف على قانون الدلالة وقواعد أنساقها العامة. وعلى الرغم من لهج بعض الأقلام بأسبقية مشروع بيرس في تدشين التصور التداولي للسيميائيات الأمريكية، فإننا لا نكاد نعثر على تصورات منهجية واضحة المعالم عن المكون التداولي في طوبوغرافيا العلامات التي اقترح صنافتها، اللهم إلا إذا اعتبرنا مفهوم السيميوزيس ضربا من ضروب إنجاز العلامات في السياق، بوصفه تخريجا تداوليا على هدي مبدأ الاستعمال في التداوليات. بالإضافة إلى التطلع الواعي للإطار الواصف للدلالات المفتوحة وتناسل العلامات في التأويل التداولي بوصفها أفعالا كلامية، إنجازية وتأثيرية بالقول، تتحقق في مستوى التقسيم الثلاثي الثالث، الذي يعزى إلى خصائص المؤولة (تصور Rhème ، تصديق Dicisigne ، حجة Argument).

ومن ثمة، فإن العلامات التصورية والتصديقية والحجاجية، تعتبر أفعالا كلامية ما دامت لا تحتمل الصدق أو الكذب من وجهة، وتشير إلى صفات واقعية تجعل الموضوع يتعين في حال تحققه الفعلي في الواقع من وجهة ثانية. وبالتالي، إمكانية اكتسابه قيمة الصدق أو الكذب. إلا أن هذا التخريج التداولي يشوبه بعض التحفظات، خاصة عندما نراجع أطروحة بيرس المتعلقة بلانهائية التدليل في مستوى طوبوغرافيا العلامات، كما لو أنها ضرب من مراوغات العلامة، أو ما يعرف بلعبة الدال في تقويضية جاك دريدا بوصفها ثورة ضد النسق اللساني. وقد كان هذا مما اعتاص على تصورات بنفينيست اعتياصا صعبا في قبول أطروحة بيرس الداعية إلى تقويض النسق السيميائي للغة انطلاقا من منظور الدلالات المفتوحة، ولا نهائية التدليل.5 وبالتالي تهميش الحقيقة التداولية في مقابل الإقرار بالحقيقة المتعالية التي ينشدها المنطق الواصف للعلامات. وفي رحاب هذا التصور سيغيب قانون الدلالة وتضمحل قواعد أنساقها، مما يجعل مسألة تأويل الأفعال الكلامية في الخطاب عملية انزلاق للمعنى في مساحة الحقيقة المطلقة.

2- مشروع شارل ويليام موريس 1901-1979:

لقد اهتم شارل موريس منذ سنة 1938 على غرار تصورات بدور التسجيل الرمزي في العلوم، ويبدو متحمسا لمشروع بيرس حول سيرورة العلامات في مجموعها، وقد راح في ذلك يستلهم مقولات بيرس في معظم أبحاثه، مؤسسا انشغاله على نظرية عامة للعلامات تنطلق من قاعدة معرفية متعددة الاختصاصات Interdisciplinaire أنثروبولوجية، وفلسفية، ومنطقية، وسلوكية.

تبدو السيميائيات في نظر موريس في علاقة مزدوجة مع العلوم، كونها علما قائما بذاته من وجهة، وأداة مسخرة لخدمة العلم من وجهة ثانية. وهي إذ ذاك تعد مرحلة جديدة في ابستيمولوجيا العلوم من إنها تقدم دعامة للعلوم الإنسانية المتخصصة في نمط من أنماط العلامات. وإلى أبعد من هذا يذهب موريس إلى أن الموضوعات التي تطرقها العلوم الدقيقة تعد علامات مشتركة في نظام تدليلي معقد مع تلك التي تطرقها العلوم الإنسانية. ويتولد عن هذه الشراكة مشروع واسع لتوحيد العلوم الدقيقة والإنسانية ضمن إطار النظرية العامة للعلامات. ولإنجاز هذا المشروع يتوجب على السيميائيات في نظر

موريس أن توحد لغتها الاصطلاحية، وتسعى إلى مقولة Catégorisation الخطاب الشارح حول العلامات، من أجل بناء نسق واصف، ما دامت أداة للعلم وأورغانون دراسة العلوم بالنسبة للعلم الواصف Méta science.6

من اللافت للنظر أن موريس منذ سنة 1938 كان يدافع عن تأويل سلوكي لنظرية العلامات، ولا أدل على ذلك من توظيفه لشبكة من مصطلحات علم النفس السلوكي من مثل الحافز، والتهيؤ للاستجابة، إلا أنه كان يؤمن بما لا يدع مجالا للشك بحياد النظرية العامة للعلامات، ذلك بالنظر إلى التعارض القائم بين النزعتين: الذهنية عند بيرس، والسلوكية عند شارل موريس. ولا ينبغي أن يحمل هذا على أنه انقطاع مع المشروع السيميائي عند بيرس، ذلك لأن التأويل السلوك الذي قدمه موريس للمفاهيم القاعدية في السيميائيات، يمكنه أن يجد مسوغا واضحا ضمن تأكيد بيرس على الخاصية الفردية لكل سيميوزيس من وجهة، وعلى الحد الأقصى للتدليل في كل مؤولة.

2-1- السيميوزيس والإطار السلوكي للعلامة:

يتبنى موريس التعريف الذي قدمه بيرس نفسه الخاص بالسيميوزيس، ويميز فيه بين " الشيء الذي يعمل كدليل وبين ما يحيل عليه الدليل، وبين مفعول الدليل على أي شخص شارح كيفما كان نوعه، وبمقتضى ذلك المفعول يصبح الشيء المقصود دليلا بالنسبة لهذا الشخص الشارح. ويمكن أن تسمى هذه المكونات الثلاثة للسيميوزيس على التوالي بالدليل-الحامل والمعين والمؤول، ويمكن أن يدرج الشخص الشارح كعامل رابع". وبعد مرور ست وعشرين سنة من بلورة هذا المفهوم، يضيف موريس مكونا آخر هو مفهوم السياق.7 ومن ثمة أضحى ينظر إلى السيميوزيس على أنه علاقة ذات خمسة أطراف، تلك العلاقة التي تخلق فيها العلامات التهيؤ للفعل بطريقة محددة في الأشخاص الشارحين، تجاه نمط معين من الموضوعات، في ظل بعض الشروط السياقية. ومن هذا المنطلق كانت هذه الأطراف بمثابة خصوصيات علائقية يتم ترصدها خلال الانخراط في السيرورة الوضيفية للسيميوزيس.

إننا نلفي في رحاب المشروع المزدوج موريس/كارناب تحديد للمعالم السيميائية للتركيب المنطقي في ثلاثة ميادين بحث هي: علم التركيب، والدلاليات، والتداوليات. وقد

حاول موريس تدقيق هذا التقسيم بهدف ضبط السمات التصنيفية للعلامات، وذلك بغية دمج المستويات الثلاثة في أنموذج سيميائي موجه نحو السلوك على النحو التالي:

- علم التركيب: يعالج العلاقة الشكلية للعلامات فيما بينها.
- الدلاليات: وتعالج علاقة العلامات بالموضوعات في كل حدودها الممكنة.
- التداوليات: تعالج علاقة العلامات بالمؤولين، وآثار المعنى داخل السلوك.

2-2- المكون التداولي في سيميائية ش.موريس:

بناء على التعريف الذي قدمه ش.موريس للتداولية على أنها فرع من السيميائيات، يهتم بفحص العلاقة بين العلامات ومستعمليها، وفي مقام لاحق من أبحاثه يوضح أنه مادامت العلامات تمتلك أعضاء حية بوصفه مؤولات، تغدو التداولية بحثا في مظاهر نشاط وفاعلية السيميوزيس، يمثلها مجموع المظاهر السيكولوجية والبيولوجية التي ترتبط بسيرورة العلامات.

وفي رحاب هذا التصور يتجلى المعطى التداولي لمشروع ش.موريس في تمييزه الضمني بين التداولية المحضة Radicale والتداولية المندمجة Intégré ، على أن تكون هذه الأخيرة موضوع التعريف المشار إليه آنفا، بينما تعنى التداولية المحضة بإنجاز عناصراللغة في البعد التداولي للسيميوزيس مجسدا في مقولات الفعل والإنجاز والسياق، بوصفها علامات للتثبت والفهم. وعقب ذلك ينبغي أن ننوه بالدور الريادي لمفهوم القواعد التداولية الذي أشار إليه موريس عل أن هذه القواعد تمثل جملة الشروط الخاصة للتأويلات، التي تكون في إطارها العلامات الحوامل Signes véhicules بمثابة علامات وظيفية، بحيث تعمل كل قاعدة بطريقة سلوك نمطي خاص بكل قطب من أقطاب السيميوزيس.8 ومن جملة هذه القواعد، نجد قواعد تداولية خصوصية تعبر عن الشروط التي يجب استيفاؤها لدى المؤول حتى تعمل بوصفها حروف تعجب مثل " أوه" وأوامر مثل " إلى هنا"، واصطلاحات تقويمية مثل " لحسن الحظ"، وغيرها من الأساليب البلاغية والشاعرية. وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن عملية تأصيل هذه الشروط- في حدود عدم استنفادها لسياقاتها التداولية- تتم في اصطلاحات النحو والدلالة. وعندئذ يكتمل الطابع العام للوصف اللغوي.

وانطلاقا من مقولة السياق التداولية يؤكد موريس على أن العلامة اللسانية تتحدد بحكم استعمالها في تنسيق مع العلامات الأخرى المستعملة (منجزة) من قبل أعضاء الجماعة اللسانية. وما دامت اللغة نظاما اجتماعيا للعلامات الوسيطة، ينطوي فهمها على استعمال تنسيقات وتحويلات العلامات.

وما نخلص إليه، هو أن السيميائيات الأمريكية من حيث احتواءها على المعطى التداولي في أبحاث أقطابها بيرس وموريس وأشياعهما، تعد بمثابة الإرهاصات الأولى للنظرية التداولية في تحليل الخطاب، ذلك أنها سعت منذ البداية إلى تطليق الرؤية الأوروبية ، وتأسيس لبنة التداولية المندمجة في البحث السيميائي ونظرية اللغة بوجه عام. ومع هذا وذاك يظل المشروع المشروع السيميائي يبحث عن معالم تحدد أطره المرجعية، وموضوعاته وممارساته الإجرائية، في علاقته بالعلوم الأخرى، وذلك لرسم منهجه، وتشييد مقولاته، وتبيان أدبياته من خلال الممارسات التطبيقية التي تمتد عل نطاق أوسع ضمن نظرية تحليل الخطاب.

هوامش ومراجع البحث:

1- ينظر أحمد يوسف، سيميائيات مجلة مختبر السيميائيات وتحليل الخطابات جامعة وهران ع2 خريف 2006 ص 35.

2- ينظر حامد خليل المنطق البراجماتي عند تشارلز بيرس دار الينابيع دمشق/سوريا 1996 ص 193.

3- C.S.Peirce, Ecrits sur le signe, tr G. Deledalle, ed Seuil Paris 1978 p126.

4- ينظر قوتال فضيلة العلامة والسيرورة الدلالية مجلة مختبر السيميائيات وتحليل الخطابات جامعة وهران ع1 خريف 2005 ص 177.

5-Cf. E.Benveniste Problemes de linguistique générales, ed gallimard 2005 t2 pp 44-45.

6- ينظر مارسيلو داسكال الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة ترجمة جماعة من المغاربة دار افريقيا الشرق المغرب 1987 ص ص 34/33.

7- ينظر المرجع نفسه ص 20.

8- Cf. C.Morris in théories du signe et du sens lectures 2 ed klincksieck paris 1976 pp 82/83.